



﴿مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾

ليل ثقيل مظلم، رحلة طويلة شاقة، وعيون ترقب أملأ لم يأت بعد، تساؤلات لا نهاية لها، لماذا؟ وإلى متى علينا أن نصبر على ما لا يطاق أو أن نستوعب ما لا يفهم.

لا تشرب على حيرتنا، فعلمنا تتكاثر فيه الفتن وتنقلب فيه الموازين، نشاهد أحداثاً لا تفسير لها ومشاهد لا تفسر بالمنطق؛ أهل غزة قصفت بيوتهم، ودفت عائلاتهم، وأحياءهم سكعوا الخيام التي أنككتها كثرة الترحال، ومزقتها الأمطار. أطفالهم برد، جوعى، مرضى، فتساءل لماذا تم خذلانهم؟ أما أهل سوريا، وبعد ثورة كلفت دماء ركية وتركت نساء ثكلى وأيتاما بلا مأوى، نرى أصحابها اليوم يتنازلون عن مبادئهم باسم المرحلة أو الواقعية، ويتغدون بولائهم بالغرب وإظهاره كحل وحيد لبقاء الشعوب وازدهارها، فلا عجب لو انهمروا علينا أسئلة لا جواب لها: هل بيعت الدماء في سوق السياسة؟ ولماذا من قتَّل حر طليق بينما صاحب الحق في السجون؟ حتى على مستوى حياة الفرد لماذا يظلم أو يخذل أو يحرم من حقوقه؟

يا لها من أفكار وتساؤلات لا تنتهي، حتى وقفت عند آية في سورة الكهف: **﴿مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾**...

لقد شعرت بثقل هذه العبارة، كأنها تفتح نافذة على سر عميق في حياة الإنسان، سر الصبر الذي يجب أن نتعلمه رغم مراته، ونعاونه رغم قسوته.

فما هو ذلك الأمر الذي لا نستطيع الصبر عليه؟

ما أشد وقع هذه الآية على من ظن أن عقله قادر على احتواء حكمة الأقدار، ثم اكتشف أن الحكمة لا تؤخذ من ظاهر الأشياء، بل ترثى من عمق الصبر، ومن تسلیم لا يقاس بالحسابات الأرضية.

كم من مشهد في واقعنا اليوم يشبه مشاهد العبد الصالح مع موسى عليه السلام؟

حين خرق السفينة فظنه ظلماً، فكان نجاة!

وحين قتل الغلام فظنه قسوة، فكان رحمة!

وحين أقام الجدار في أرض القوم الظالمين، فظنه عبثاً، فكان أمانة!

نحن اليوم نحكم على الأقدار كما لو أننا نراها كلها، ونسى أن خلف كل ستار تدبّرا إلهاً لا يقاس بالبصر، بل بال بصيرة؛ فكم من حزن أنقذك! وكم من فقد حماك!

**﴿مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾** لم يكن عجزاً منك، بل درساً لتعلم كيف ترفع رأسك نحو السماء لا نحو المواقف. فكم من موقف تسرّعنا في رفضه، لأننا لم نتحمل صبراً على تأويله؟ وكم من مشهد سياسي، أو قرار

ثوري تبنته الشعوب وأريقت الدماء، وبدا في لحظته بداية بطولة ونجاة، ثم ما لبث أن تكشف عن كونه تمكينا للحكم السابق وبابا واسعا للفتنة؟ ولنا في سوريا مثال.

﴿مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ ليست آية من قصة قديمة فقط، بل هي مرأة الواقع نعيشها؛ حين يطلب منا الإيمان في زمن يقدس الحسابات، ويتضرر منا الثبات في لحظة يبدو فيها كل شيء من حولنا مضاداً ومتناقضاً، فهل نصبر ونلتزم بعمر رسول الله ﷺ دون تفريط ولا إفراط؟ أم ننزلق في فخ الاستعجال، ونفقد البوصلة، ونكون كمن اعترض على السفينة قبل أن تغرق، أو على الجدار قبل أن يكشف كنزه؟

علينا أن نفهم أن بعض المواقف التي نراها اليوم خسائر، قد تكون في حقيقتها نصراً مؤجلاً، ولنا في غزة عبرة. هذا المقال ليس ترفاً فكريّاً، ولا دعوة للانسحاب من الواقع، بل رسالة لمن ضاق صدره، وتعب قلبه، وثقلت عليه الطريق.

فطريق الدعوة إلى إقامة الحق والخلافة، وإن بدا بعيداً وشاقاً، قد يكون ﴿مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾، هو نفسه درب الخلاص والتمكين، لو صبرنا.

هنا تبدأ الحكاية، وهنا يبدأ الإيمان الحقيقي؛ فما لم تصبر عليه اليوم، قد يكون سر نجاتك غداً. فيما من أثقلتك الحزن، وضاق صدرك من الانتظار، اصبر كما صبر أولو العزم من الرسل، ولا تيأس إن بدا لك الواقع مظلماً، فالأنبياء أنفسهم لم تكشف لهم الحكمة إلا بعد الابتلاء. سيدنا موسى لم يفهم أفعال العبد الصالح حتى انتهى اللقاء، وكل ذلك كان ابتلاء للإيمان، وتحيصاً للبيان، فثبتت وكن من الصابرين، فإن في كل محنـة حكمة، وفي كل وجع رسالة، وفي كل تأخير لطفاً لا يرى.

وما لم نستطع عليه صبراً اليوم، سيكون يوماً ما شاهداً على عمق إيماننا بالله، وثبتنا بأن النصر لا يأتي إلا من عند الله، لا من حسابات الأرض ولا من تحالفات الضعفاء.

قال تعالى: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مُؤْلَدًا﴾، هل أدركنا المقصود بقوله تعالى: كتب الله "النا" لا " علينا"، ما يدل على الرحمة والخير والفضل، أي أن ما يصيّبنا هو لصالحتنا في النهاية، حتى لو بدا أذى أو ضرراً، فالله كتبه "النا"، أي فيه خير أو مصلحة لنا في الدنيا أو الآخرة، فيما ليتنا نثق بتدبر الله ونصبر على ما لم نستطع عليه صبراً.

كتبته لإذاعة المكتب الإعلامي المركزي لحزب التحرير

منال أم عبيدة